(٨)

ويل للغالب المغلوب*

قال الإمام علىٌ كرم الله وجهه فى بعض مجالسه: السيف أنمى للعدد..

فقال رجل من أصحابه يسمى أبا الأحوص الخزاعى: يا أمير المؤمنين، كيف تنمو الفروع إذا اجتثت الأصول؟..

فقال له الإمام: يا أبا الأحوص إن الأصل هنا هو الحق، فمادام الرجل منا على الحق فإن فروعه تنمو وإن جرى عليه السيف، ونحن آل البيت سيجرى علينا السيف، ولكن الله لم يبارك فى أهل بيت كما يبارك فينا، كلما اجتثوا منا زاد نماؤنا..

قال ابن أبى الحديد: صدق أمير المؤمنين ما أكل السيف من أهل بيت..

كما أكل من آل على كرم الله وجهه، ومع ذلك فهم ملء أقطار الأرض جميعا، لا يخلو منهم قطر، فأين من ذلك أصحاب السيوف من بنى أمية وبنى العباس..

الويل للمغلوب – كلمة من الكلمات التى لا تنسى فى التاريخ، قالها جبار من جبابرة الأرض يسمى فلهلم الثانى قيصر ألمانيا..

وقد قالها فى اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٩١٤م عندما أعلن الحرب على فرنسا وأرسل قواته تجتاح بلجيكا لتختصر الطريق إلى باريس..

وكان قيصر ألمانيا ووزير خارجيته الدوق فون بيلوف وقائده العسكرى فون مولتكى لا يشكون فى أن قواتهم ستدخل باريس وتخرج فرنسا من

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ أغسطس ١٩٨٢م.

ميدان الحرب فى أسبوعين ثم تتوجه الجيوش الألمانية بكامل قواتها بعد ذلك إلى الشرق وتمحو القيصرية الروسية من الوجود..

والخطة كانت موضوعة من ١٩٠٥م وضعها رئيس أركان الحرب الألمانية فون شيلفن ومضى يعد العدة لتنفيذها بالدقة والإحكام الألمانيين المعروفين..

وكانت ألمانيا تملك يوم أعلنت الحرب على روسيا فى ١ أغسطس ١٩١٤م وعلى فرنسا فى ٣ أغسطس قوة عسكرية لم تشهدها البشرية من قبل: أربعة ملايين ونصف مليون من الجنود المدربين تدريبًا عجيبًا المسلحين تسليحا أعجب وثمانية عشر ألف مدفع تتراوح مقاييسها من بوصة ونصف إلى ١٤ بوصة، ونحو نصف مليون سيارة نقل جنود، وثلاثة آلاف دبابة صغيرة وسيارة مصفحة وحوالى نصف مليون فرس وثمانين بارجة وخمسين مدمرة ونحو مائتى غواصة ووراء ذلك مصانع سلاح وذخيرة تعمل على مدار اليوم وخطوط سكك حديدية لها العجب ومراكز عسكرية ومخازن تموين وذخيرة أعدت إعدادا كاملا بإحكام بالغ..

فكيف يشك إنسان تحت يده هذه الآلة الرهيبة فى أنه سيدخل باريس ويتلقى استسلام روسيا وبريطانيا ويتربع على عرش الدنيا يرسم خريطتها كيف يشاء قبل آخر سبتمبر ١٩١٤م؟..

كان لسان حاله يومئذ يردد قول الشاعر العربى مخاطبا هارون الرشيد:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار..

ولكن الشهور الأولى من الحرب أثبتت له أنه أهون من ذبابة فى يد الأقدار..

فآلة حربه الرهيبة أخذت تتحطم على جبهات المارن والسوم فى شمال فرنسا..

والجنود الذين كان يحسب أنهم يغزون له المريخ لو أراد أخذوا يتهاوون بالمئات فى خنادق الجبهة الغربية وسهوب الجبهة الشرقية.

وبعد أربع سنوات من الحرب والدمار كان جيش القيصر الهائل قد تهاوى أشلاء ممزقة يأكلها المرض والجوع والموت، وكان مولتكى قد مات وخلفه جبابرة آخرون من جبابرة الحرب البروسيين من أمثال هندمبورج ولودندورف..

وفى نوفمبر ١٩١٨م وقف القيصر المارد مروعا خائفا كأنه متسول فى أسمال: جيوشه تمزقت وعصفت بها رياح الموت والمرض والأسر، وبوارجه غاصت فى المحيط، وغواصاته لم تبق منها إلا نحو ثلاثين رابضة فى مخابئها خائفة، والشعب الألمانى الذى زعم القيصر ورجاله أنهم دخلوا هذه الحرب لكى يجعلوا منه أعز شعب فى الدنيا تهدمت قواه وأهلكه الجوع وبدت فى ملامح الباقين منه الذلة والمسكنة، لقد خرج محاربا يطلب المجد وسيادة الدنيا وانتهى بائسا يطلب الخبز، وعندما أمر القيصر بقية أسطوله لتخرج من قواعدها فى ركيل لتهاجم أساطيل الحلفاء فى محاولة أخيرة يائسة تمرد رجال الأسطول وخلعوا طاعة القيصر وكانت تلك صرخة الثورة، فقد ثار الألمان جميعا على حكومتهم الغاشمة فى السابع من نوفمبر ١٩١٨م..

وفى التاسع من نوفمبر تنازل القيصر عن العرش وهرب إلى هولندا تاركا قواده وعلى رأسهم لودندورف وهندمبورج ليسلموا السيف الألمانى للأعداء..

وفى ملجئه فى هولندا هز القيصر المحطم رأسه وقال: حقا! ويل للمغلوب!..

هذه الصورة تلاحقت فى ذهنى وأنا أتأهب لكتابة هذا المقال.. لأمر ما رأيت صورة القيصر فلهلم فى صورة مناحم بيجين وفى مكان فون

مولتكى رأيت أرييل شارون فى مكان بلجيكا التى اجتاحتها جيوش فون مولتكى دون ذنب جنته لكى تصل إلى باريس رأيت لبنان وبيروت، وفى أطلال بيروت رأيت أطلال بلجيكا وشمال فرنسا فى نهاية الحرب العالمية الأولى ومدافع برنا الرهيبة التى عجزت وكلت أمام حصون فردان هى مدافع شارون التى كلت وانهزمت أمام عزيمة المقاتلين العرب ما بين فلسطينيين ولبنانيين أحرار..

وليصدقنى القارئ إذا قلت له إن فيليب حبيب فى مفاوضاته الطويلة المضنية لم ينقذ بقية المجاهدين الفلسطينيين بقدر ما أنقذ الإسرائيليين المتجبرين الذين ظنوا أنهم يملون إرادتهم على الأقدار.. لقد أنقذهم من هزيمة ساحقة مجزرة بشعة لم يكن لهم عنها مفر إذا هم واصلوا الهجوم على بيروت..

وليصدقنى القارئ مرة أخرى إذا قلت له إن المجاهدين الفلسطينيين الذين قالوا: هذه هى ستالينجراد لم يبالغوا فى شىء، فإن الحرب لو استمرت أكثر من ذلك لتحطمت ؟؟ الحرب الإسرائيلية أمام قلعة من رجال عولوا على الموت وثبتوا أقدامهم فى مساحة لا تزيد على فدانين من الأرض، تمتد من مخيم شتيله إلى الطريق الواسع الفاصل بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية وهو أيضا بداية طريق بيروت ويسمونه الحزام الأخضر.

ذلك لأن مناحم بيجين وارييل شارون لم يكونا يحاربان لحق أو عدل أو دفاع عن نفس بل كانا يحاربان للتخريب والتدمير والحقد والانتقام، بالضبط كما اجتاحت جيوش مولتكه سهول بلجيكا لكى تصل إلى باريس وتذل الفرنسيين..

ولو أن العرب نجحوا فى أن يجعلوا من بلادهم خلفية واسعة لمعركة بيروت لكانت بيروت هى ستالينجراد هذه الحرب ولا ستسلم أرييل

شارون كما استسلم المارشال فون باولوس لقوات الروس أمام ستالينجراد، وكما استسلم لودندورف لقوات الحلفاء ومن ورائه شعب ألمانى ثائر متمرد جائع ممرور..

والذين يعرفون مناحم بيجين وآرييل شارون حق المعرفة يفهمون معنى ما أقول، لأن بيجين الذى يطالبنا بأن نطبع علاقاتنا مع بلاده رجل غير طبيعى، وهو عاجز عن أن يطبع نفسه ذاتها وأغرب منه فى هذا المجال وزير حربيته آرييل شارون، وما رأيك فى قائد عسكرى يأمر مدافعه الثقيلة بأن تحطم عمارة سكنية من ثمانية طوابق فى منطقة بيروت الغربية ويسأله مراسل مجلة درشيجل ولماذا تهدم عمارة سكنية ليس فيها إلا نساء وأطفال وغرف نوم وأسرة وحمامات؟..

ويكون الجواب العجيب: اهدمها لهذا السبب بالذات لأنها عمارة سكنية ليس فيها إلا غرف نوم وأسرة وحمامات ونساء وأطفال..

ولم يفهم المراسل الألمانى فوضع علامة تعجب طولها ثمانية طوابق، مثل علامة التعجب هذه وضعها نفر من المصريين كانوا يصاحبون آرييل شارون فى زيارة ودية لمصر وأخذوه إلى ساحل أبى قير وقدموا له سمكا كثيرا، فجعل ينظر إليه ويستكثره على المصريين، ثم أخذ يشمه لحظات قبل أن يتناول منه شيئًا، وكان من الواضح أنه يشك فى أن فيه سما قد بطل عجبهم عندما عرفوا أن هذا الضيف الذى أتى ليزور فى زعمه أصدقاء له لم يكن ينام فى مكان ضيافته فى مصر إلا وتحت وسادته مسدس، والسيدة والدته تتصل به من تل أبيب لتطمئن على أنه وضع المسدس تحت الوسادة واستوثق من أنه عامر بالرصاص..

ومناحم بيجين الذى نال نصف جائزة نوبل للسلام لا يزال يردد أن بيتا محترقا فى أى بلد عربى معناه بيت سعيد فى إسرائيل..

وويل لأى إنسان إذا كان فى قلبه هذا الحقد كله!..

ومناحم بيجين وآرييل شارون رغم كل شيء يعانيان آلاما نفسية بلا حدود، وما رأيك في ناس كانوا يصرون على إعدام تسعة آلاف إنسان، ثم يطالبون في نفس الوقت بجثث تسعة من الإسرائيليين قتلوا منذ سنة ١٩٧٩م ويجعلون إعادة هذه الجثث شرطًا من شروط الاتفاق، وإسرائيلي ميت في نظرهم يساوى ألف عربي على قيد الحياة!..

□□□

وفي الساعة الخامسة من صباح السبت ٢١ أغسطس الحالى ١٩٨٢م خرجت من بيروت أول مجموعة من مقاتلي الفلسطينيين في طريقها إلى لارناكا في قبرص لتمضي منها إلى بغداد والأردن، ليخرج الرجال الذين لم يهزموا وهاماتهم مرفوعة وليس في قلوبهم شيء من آثار الخوف أو الذلة والانكسار لقد خرجوا من ميدان من ميادين المعركة ليواصلوا القتال في ميدان آخر لأنهم أصحاب حق ومحاربون أحرار، وسطح الأرض كلها ميدان حرب للمجاهد الحر صاحب الحق..

ودعاة الصهيونية الأول أنفسهم كانوا يقولون ذلك، ومن بعيد وقف آرييل شارون يرقب الخروج من منظار دبابة، وسيظل في مكانه هذا حتى يخرج آخر مقاتل فلسطيني كما يقدر وهو قائم في موقفه هذا لأنه خائف..

رغم القوة العسكرية الهائلة التي يرأسها فهو خائف، وهذا ليس بغريب من رجل يخشى السم في سمكة قدموها له على سبيل الضيافة، وتخاطبه زوجته من تل أبيب لتطمئن على أنه وضع مسدسه تحت وسادته محشوا بالرصاص في بيت الضيافة.

وفي مقالي هذا أنا لا أكتب سطرًا واحدًا من عندي، فكل ما قلته وأقوله أخذته من مصدر صدق لأنني أريد مخلصًا أن أصل مع قرائي العرب إلى فهم أولئك الناس الذين قال فيهم أحد محرري جريدة دي تسايت..

(الزمان) الألمانية إنهم بدأوا مجاهدين وانتهوا سفاحين، وعلى هذا الرأى كل مفكرى الدنيا اليوم فيما عدا الأمريكيين وسأخصص فقرة من هذا المقال للأمريكيين وموقفهم العجيب من إسرائيل وتفكيرهم الأعجب..

وليس لى بين الإسرائيليين صديق واحد لأنه من المستحيل أن يكون لأى إسرائيلى صهيونى صديق واحد ولا بين أمثاله من الصهيونيين الإسرائيليين أو من غيرهم، وإذا كنت تعتقد أن مناحم بيجين صديق مخلص لأرييل شارون فأنت واهم، إن بين كل منهما والآخر هوة هى أوسع مما بينهما وياسر عرفات، ولكن الخوف وحده هو الذى يجمع كل هؤلاء الحاقدين المرعوبين بعضهم إلى بعض..

وأقل هزة حقيقية تصيب الكيان الإسرائيلى ستمزقهم كلهم أيدى سبأ وستجعل بعضهم عدوا لبعض..

وفى كتاب روجيه لافيت عن اليهود - وهو كتاب لم يستنكره الصهيونيون نقرأ أن معظم الذين كشفوا أسرار اليهود لرجال الجستابو كانوا يهودا، بل يذكر الرجل أن اليهود الذين تزاحموا على مكاتب المخابرات النازية ليفضحوا إخوانهم فى الدين والعقيدة كانوا يقفون صفوفا، كل منهم كان حريصا على أن يشترى جلده بجلود مئات من اليهود.. واسمع هذه السطور التى كتبها هنرى كيسنجر فى كتابه المسمى «سنوات الانقلاب الشامل»..

فى الساعة السادسة والربع من صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣م كنت نائمًا فى جناحى فى فندق الوالدورف استوريا وكنت أقيم هناك أثناء انعقاد دورة الأمم المتحدة فى نيويورك، فى تلك الساعة الباكرة من الصباح اقتحم على مخدعى جوزف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط وجنوب آسيا، قال صارخا إن ثلاثا من دول الشرق الأوسط على وشك

الدخول فى حرب: وهى إسرائيل ومصر وسوريا، وقال إن الموضوع لايخرج عن أن يكون سوء فهم بينها فإسرائيل تسىء من ناحيتها فهم مصر وسوريا وهما كذلك من ناحيتهما وقال إننى إذا أسرعت بالتدخل وبينت الحقائق للجانبين فإننى أستطيع أن أوقف الحرب قبل أن يبدأ إطلاق النار، وكان ذلك إسرافا منه فى حسن الظن بكفاياتى، ولم يلبث أن اتضح أن سيسكو كان مبالغا فى تقديره، وعندما وقعت الحرب فعلاً كنت واثقاً من أننا فى موقف يمكننا من السيطرة على الموقف، فإسرائيل حليفتنا الفعلية كان المفروض أنها قادرة دائما على كسب أى حرب مع العرب، ومنذ البداية قررت أن أتخذ هذه الحرب نقطة بداية لعملية سلام، ولكن الأمر الذى كان يجعل الموضوع كأنه عضلة فى نظرى إذا ذاك هو موقف روسيا ونواياها لأننى كنت لا أشك فى أن هذا الصراع جزء من صراع السياسة العالمية وقلت لإلكساندر هيج: إذا كانت روسيا ستقف فى الجانب العربى من الصراع فإننا أمام موقف مواجهة وتصادم خطر، ولا مفر لنا فى هذه الحالة من أن نقف موقفًا فى غاية الصلابة فى (تأييد إسرائيل)..

وكانت ظروف الرئيس نيكسون إذ ذاك سيئة جدا فقد كان غارقًا إلى قمة رأسه فى مشكلة ووترجيت ثم إن استقالة سبيرو اجنيو نائب رئيس الجمهورية كانت تنتظر البت بسبب الأعمال الشائنة التى نسبت إليه أيام كان حاكمًا لولاية ميريلاند..

وفى يوم الثلاثاء التاسع من أكتوبر (١٩٧٣م) قابلنى سميحا دينيتس سفير إسرائيل مقابلة طويلة وكان يائسا مكفهر الوجه بادى الفزع وقال لى إن خسائر إسرائيل كانت مفزعة وغير متوقعة، فقد فقدت فى الحرب ٤٩ طائرة منها ١٤ فانتوم، ولكن الشىء المفزع حقا كانت خسائرها فى الدبابات فقد خسرت ٥٠٠ دبابة منها ٤٠٠ على الجبهة المصرية وحدها، وقد رجانى سميحا دينيتس أن أبقى مسألة الخسائر سرًا بيننا فلا يعلمه

سوانا غير الرئيس نيكسون، لأن العرب لو عرفوا ذلك لتجمعوا معا ليوجهوا لإسرائيل ضربة قاضية..

وفى الخامسة إلا ربعا من نفس الوقت لقيت نيكسون وشرحت له الأمر، وكان قد أمضى معظم اليوم مشغولا بموضوع أجنيو، ولكن مصير إسرائيل لم يغب عن باله فقال لى دون تردد: لا ينبغى أن تترك إسرائيل لتخسر الحرب بحال، وأمر بأن نسرع فى إرسال الإمدادات لأننا ينبغى كما قال أن نعوض «كل» خسائر إسرائيل حتى لا تضطر إلى استنزاف نفسها باستخدام كل ما لديها من احتياطى..

وفى يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر علمنا أن روسيا أرسلت إلى سوريا عشرين ناقلة ضخمة محملة بالعتاد مما دل على أنها كانت قد أعدت لهذه الحرب عدتها.. وبعد قليل يقول كيسنجر إن البنتاجون أعد أسرع ما استطاع ثلاث ناقلات ضخمة من طراز .E.S.A وهى ناقلات تستطيع الواحدة منها أن تحمل من ٦٠ إلى ٨٠ طنا من المواد الحربية فى النقلة الواحدة، وقد تمكنت هذه الناقلات من أن تحمل فى كل يوم ١٠٠٠ طن من العتاد، ومعنى ذلك أننا استطعنا فى اليوم الأول أن ننقل لإسرائيل أكثر مما استطاع الاتحاد السوفيتى أن ينقل إلى سوريا والعراق فى أربعة أيام، وبماذا نخرج من هذا الكلام؟..

نخرج أولا بأننا نحن العرب لو كنا تجمعنا فعلا فى حرب أكتوبر وقدمنا للمحاربين على الجبهتين المصرية والسورية أقصى ما نستطيع من عون حربى لأصيبت إسرائيل بضربة قاضية..ولكننا لم نفعل فنجت إسرائيل، وثانيا لو أن الاتحاد السوفيتى كان جادا معنا جد أمريكا مع إسرائيل لعجزت إسرائيل عن تعويض خسائرها ولكسب العرب الحرب، ولكن الاتحاد السوفيتى لم يفعل فكان ذلك من حظ إسرائيل، فإذا أخذنا هذين الاعتبارين فى أذهاننا لأمكننا أن نقول ما يلى.. لو أننا كنا اليوم فى

معركة بيروت فعلاً كتلة واحدة بالفعل لا بالقول لكانت معركة ستالينجراد العربية اليوم فى طريقها ولما استطاع شارون أو غيره أن يقف هذا الموقف المستأسد المدل بقوته، لأن الحقيقة أننا نحن العرب إذا واجهنا إسرائيل جبهة واحدة فهى بذاتها لن تثبت لنا، حتى الولايات المتحدة لن تستمر فى تأييدها لها إذا وجدت نفسها أمام حائط عربى واحد، والسياسة مصالح، ومهما بلغ من عطف أمريكا على إسرائيل فهى لن تستطيع الاستمرار فى التضحية على حساب مصالحها لتنقذ إسرائيل..

وأما روسيا فها أنت ذا ترى مقدار ما استطاعته فى الوقت الحاسم، إنها لم تستطع أن تقوم بربع ما استطاعت أن تقوم به الولايات المتحدة وهى فى الحقيقة لا تريد نصر العرب ولا تستطيع معاونتهم على النصر..

وبعد الغزو الروسى لأفغانستان خرجت روسيا فعلاً من كل قضايا التحرير ولم يعد فى إمكانها إلا الكلام، فإن دولة كبرى تسمح لنفسها باجتياح دولة صغيرة من دول العالم الثالث على هذا النحو الوحشى الاستعمارى لا يمكن أن تكون صادقة فيما تزعم من تأييدها للحريات فى أى مكان، وانظر الآن إلى الموقف المذرى الذى تقفه روسيا فى سياسة العالم: لقد انصرفت عنها كل دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ولم يبق معها إلا جماعات لا يحسب لها حساب: كوبا حيث يلفظ نظام فيدل كاسترو أنفاسه وبعض الجماعات فى أنجولا وموزمبيق واليمن الجنوبية ثم القذفى وها نحن أولاء نرى تدهور مركز القذافى فى أفريقيا ذاتها، لقد صنع الرجل لنفسه ثوبا فضفاضا سماوى اللون ذا شراشيب ليتلقى فيه رياسة مجلس الوحدة الأفريقى فى طرابلس، فتحالفت أفريقيا على أن تحرمه هذا الشرف، لقد دفع أموالا طائلة حتى أقنع ٣٢ دولة بالحضور، وعجز عند ذلك الحد، فلم ينعقد الاجتماع ولو كان عنده مال لدفع وكسب. ولكن الحقيقة هى أن الموقف المالى لليبيا اليوم موقف سيئ جدًا،

فهى لا تكاد تستطيع الوفاء بالتزاماتها الدولية المالية، وعن قريب جدًا ستمد يدها لتستدين ثمن الطعام لشعبها، وكان ذلك بسبب استنزاف الروسيا لموارد القذافى فهو يدفع أثمان عتاد لأثيوبيا واليمن الجنوبية وبعض الجماعات فى أنجولا وموزمبيق بل فى جزر سيشل، أما الفلسطينيون فقد كان أقصى ما استطاعه لهم هذا الرجل هو أن يطلب إليهم أن يموتوا ليكونوا شهداء خالدين..

وهذا الكلام أقوله لإخوانى العرب كى يذكروا أنهم الآن أمام فرصة لا تعوض، فإن إسرائيل اليوم فى موقف الخاسر من كل وجه، فكل ما فعلته منذ دخولها لبنان فى ٦ مايو الماضى هو أنها أضاعت كل رصيد كان لها من الاحترام، لقد خربت تحت سمع العالم وبصره وبلا داع مدينة زاهرة لم تكن فى يوم من الأيام عدوة لها، وإذا كانت إسرائيل تحسب أنها كسبت بذلك أمنها من ناحية الشمال فما أفدح الثمن الذى دفعته فى سبيل ذلك، وإذا كان أمن إسرائيل مهددا بهذه الدرجة بسبب ستة أو ثمانية آلاف مجاهد فلسطينى، فما أضعف إسرائيل وأهون شأنها وأسبانيا وهى ليست من كبيرات الدول تخسر على أيدى ثوار الباسك أضعاف ما كانت إسرائيل تخسره من الفلسطينيين فهل سمحت أسبانيا لنفسها بتخريب مدينة سان سباسيتان بحجة أن الباسكيين يتخذونها ملجأ لهم؟..

أريد أن أقول إن حادث غزو إسرائيل للبنان ابتداء من ٦ مايو ١٩٨٢م يقدم فرصة لا تعوض لجمع الكلمة فعلا ومواجهة إسرائيل مواجهة حاسمة وقاضية، فإن إسرائيل تسير اليوم فى طريق الخطأ القاتل مثلها فى ذلك مثل ألمانيا الهتلرية قبل وبعد ستالينجراد، وربما كان وجود مناحم بيجين وآرييل شارون إسحاق شامير على رأس إسرائيل اليوم معينا للعرب على كسب معركتهم كما كان وجود هتلر على رأس ألمانيا أكبر معين للعرب،

كان رجلا أعماه الغرور والحقد فكان ينصرف دون وعى، وكل ما تصور أنه يكسبه فى صراعه كان يخسره فى الحقيقة قطعة قطعة ها هو ذا شارون بعد أن تصور أنه فرغ من معركة ببيروت يفكر فى مواصلة الحرب بحجة أن السوريين مازالوا فى البقاع، ولو كنت من سوريا لا نسحبت تماما من لبنان فقد كان دخول السوريين لبنان خطأ منذ البداية. فلا سوريا كسبت منه شيئا ولا لبنان أفاد منه شيئا إنما هى أموال ضاعت وأسلحة تحطمت ونفوس أزهقت، والموقف بعد ذلك أسوأ مما كان ، فلماذا الاستمرار فى الخطأ، وإذا كان النظام السورى يحسب أنه يقوى نفسه بذلك فهو جد مخطئ لأن قضية النظام السورى ليست فى لبنان بل فى سوريا نفسها، ومادام موقفه داخل سوريا مزعزعا لن ينفعه شىء وربما تحسن موقفه بعض الشىء، لو انسحب اليوم من البقاع، وإن كانت الحقيقة التى ينبغى على كل العرب مواجهتها اليوم هى أن سوريا بوضعها الحالى ونظامها الواهن نقطة ضعف لا قوة، فهى أشبه بالبناء الآيل إلى السقوط من زمن، وقد تأكدت هذه الحالة بموقف النظام السورى من الغزو الروسى لأفغانستان، فإن الذى يؤيد غزو الروس لأفغانستان لا يستطيع الكلام عن حرية أو كرامة أو حقوق شعوب، والمسألة فى النهاية مسألة صراع بين شعب وحكومته، والشعوب لا تموت ولكن الحكومات الباغية تتلاشى فى طرفة عين..

□□□

إن العرب اليوم على أبواب مؤتمر قمة جديد، وإذا كان خطر إسرائيل هو لباب كل مؤتمرات القمة العربية، فإن ذلك الخطر قد تغير شكلا ونوعا وقوة.. وإسرائيل اليوم غير إسرائيل قبل ٦ مايو ١٩٨٢م إنها اليوم وفى نظر الدنيا كلها دولة معتدية دموية بعيدة عن الإنسانية، وإن دولة تسمح لنفسها بأن تهدم مدينة آمنة على رءوس أهلها كما فعلت إسرائيل يوم

الخميس ١٩ أغسطس ١٩٨٢م ببيروت الغربية لا يمكن أن تعود قط إلى مكانها الذى كان لها فى أعين الذين كانوا يصادقونها، فمن الساعة السادسة صباحا إلى الخامسة مساء ظلت إسرائيل تقذف بيروت بالقنابل بصورة همجية دون هوادة من البر والبحر والجو، لقد قامت قواتها جميعا بمائتين وعشرين هجومًا مكثفًا على نصف المدينة الغربى فى موجة من موجات الحقد البشرى لم يسمع أحد بمثلها منذ هاجم سلاح الجو البريطانى مدينى درسدن بألمانيا فى ليلة من ليالى نوفمبر ١٩٤٤م إن مجلة تايم تقدر عدد الموتى بمائة وستة وخمسين قتيلا والجرحى بأربعمائة وسبعة عشر، وهو تقدير يدعو إلى العجب من مجلة لها مكانة كبرى، ولكن عجبنا يتلاشى إذا عرفنا أن كل رجال مكتب هذه المجلة فى بيروت ولبنان وإسرائيل يهود والحقيقة أن الموتى ألوف، وإذا كانت طلقات مدفع رشاش واحد على مطعم يهودى فى باريس قد قتلت ستة نفر وجرحت نحو ثلاثين، فماذا تفعل أكثر من سبعة آلاف قنبلة وقذيفة وصاروخ صبت على مساحة لا تزيد على فدانين من الأرض فى يوم واحد؟..

ومع ذلك فهل حطمت إسرائيل قوى العرب ومنظمة التحرير؟..

لا والله إنما هى زادتها هيبة واحتراما فى نظر الناس أجمعين، وكما تغيرت نظرة الناس أجمعين إلى إسرائيل بعد غزوها للبنان، فإن نظرة الناس جميعا قد تغيرت إلى المجاهدين الفلسطينيين وحلفائهم من أحرار لبنان..

□□□

وهذا بدوره يستدعى أن تتغير لغة القمة العربية القادمة، إن أى إجماع فى الرأى بين العرب سيكون له أثر مباشر على إسرائيل، وإذا كان بعض إخواننا العرب قد وقفوا موقفًا معينًا فى الحل الذى اقترحه الرئيس

السادات وسارت فيه مصر بعد ذلك، فذلك شأنهم وهم أحرار فـى الموقـف الذى اختاروه. ولكن ليتفقوا على أى شىء فيما بينهم، ليتفقوا على مشروع السعودية مثلا فهو فى جملته مشـروع عملـى وجـاد وواقعـى. وكـان خطأ فادحا من العرب أن خذلوه فى قمة فـاس الأولى فعسـاهم لا يخذلونـه هـذه المرة، ليقروه كما هو وسيروا أن الولايات المتحدة ستؤيدهم فيه.. ولقد كـان السيد ياسر عرفات ممن نقضوا هذا المشروع وكان ذلـك خطأ فادحـا منـه، ولو أنه أيده وأخذ به لكان حله اليوم أحسن بكثير من موقفـه اليـوم، وأنـا لا أشير هنا إلى كامب ديفيد لأننـى أعـرف أن هنـاك موقفـا معينـا لبعـض الإخوة العرب من تلك الاتفاقيات، وكامب ديفيد مهما قالوا فيها قد حلت جانبا من المشـكلة وبقيـت الجوانـب الأخـرى، ولا حـل لهـا إلا بالاتفـاق ووحدة الرأى بين العرب، أما الاختلاف فسيعطى إسرائيل فرصة هى فـى أشد الحاجة إليها لتغيير صورتها البشعة فى نظر الدنيا..

□□□

إن إسرائيل اليوم فى أدنى دركات تاريخها فـهى قـد سـودت سمعتـها ولم تنتصر، وهتكت قناع الخداع الذى كـانت تتسـتر وراءه، دون أن تنـال من شرف العرب، وأرجو ألا يخشى العرب الولايات المتحـدة فـى موضـوع إسرائيل، فإن الولايات المتحدة يفيض بها الكيل من إسـرائيل، وتكـاليف إسرائيل وخبث إسرائيل، ثم إن مشـاكلها هـى تكـاد تغرقـها فـالآن أيـها العرب اتحدوا على أى رأى وقفوا جدارًا واحدًا لأن إسـرائيل قـد خرجـت من معركة بيروت تتظاهر بأنها غالبة وهى مغلوبة مهينة. اليوم لا غدا..

وانفضوا أيديكم من روسـيا إذا كنتـم تريـدون بأنفسـكم خـيرا وواجـهوا العالم جبهة واحدة فقد فتح الحقد الإسرائيلى أمامكم آفاقـا جديـدة للعمـل والكسب فلا تقفوا حيث كنتم ولا تجعلوا من قمة فاس الثانية سـلاحًا فـى يد إسرائيل..